من آيات الله

فى الآفاق وفى الأنفس

قال تعالى فى سورة فصلت: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣].

يقول ابن كثير: أى ستظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على محمد رسول الله ﷺ بدلائل خارجية فى الآفاق.

﴿ **وفى أنفسهم** ﴾ يحتمل أن يكون المراد من ذلك: ما الإنسان مركب منه، وفيه، وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو فى علم التشريع، الدليل على حكمة الصانع تبارك وتعالى، وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبيح وغير ذلك.

إن قوله تعالى: ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم** ﴾ وعدٌ من الله لعباده بنى الإنسان أن يطلعهم على شئ من خَفَايا هذا الكون، ومن خفايا أنفسهم على السواء، وعدهم أن يريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم.

ومن أصدق من الله حديثاً. وهذا وعده يتحقق كلَّ يوم، فيكشفُ للإنسان كل يوم عن جديدٍ من خفايا هذا الكون، ومن خفايا هذه النفس على السواء.

لقد صدقهم الله وعده، فكشف لهم عن آياته فى الآفاق، فى خلال القرون الأربعة عشر، التى تلت هذا الوعد، وكشف لهم عن آياته فى أنفسهم، وما يزال يكشف لهم كل يوم عن جديد.

لقد عرف الإنسان أشياء كثيرة بعد نزول القرآن، ولو أدرك كيف عرفها وشكر لكان له فيها خير كثير.

وينظر الإنسان فيرى البشر، قد كشفوا كثيراً جداً منذ ذلك الحين، فقد تفتحت لهم الآفاق ، وتفتحت لهم مغاليق النفوس بالقدر الذى شاءه الله.

عرفوا منذ ذلك الحين أن أرضهم التى كانوا يظنونها مركز الكون، إن هى إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس، وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة، منها فى الكون مئات الملايين، وعرفوا طبيعة أرضهم، وطبيعة شمسهم، وربما عرفوا طبيعة كونهم إن صح ما عرفوه.

وعرفوا الكثير عن مادة هذا الكون الذى يعيشون فيه- إن صح أن هناك مادة- عرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرة، وعرفوا أن الذرة تتحول إلى إشعاع، وعرفوا إذن أن الكون كله من إشعاع فى صور شتى، هى التى تجعل منه هذه الأشكال، والأحجام.

وعرفوا الكثير عن كوكبهم الأرضى الصغير، عرفوا أنه كرة أو كالكرة، وعرفوا أنه يدور حول نفسه، وحول الشمس، وعرفوا قاراته، ومحيطاته، وأنهاره، وكشفوا عن شئ من باطنه، وعرفوا الكثير من المخبوء فى جوف هذا الكوكب من الأقوات وعرفوا الكثير من مشاهد هذه الخلائق من الأحياء التى تعمر الأرض، من النبات، والحيوان، والطير، والسمك، والزواحف، والحشرات.

قال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وعرفوا كذلك وحدة النواميس التى تربط هذا الكوكب الأرضى بالكون الكبير، ومن الناس من اهتدى فارتقى من معرفة النواميس إلى معرفة خالق النواميس، ومنهم من انحراف عند ظاهر العلم لا يتعداه. قال تعالى فى سورة الروم: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم: ٧].

ولم تكن فتوح العلم والمعرفة فى أغوار النفس بأقل منها فى جسمه، فقد عرف الإنسان شيئاً عن الجسم البشرى وخصائصه، وأسرار تكوينه وتركيبه، ووظائفه

وأمراضه وغذائه، وتمثيله، وعرفوا من أسرار عمله وحركته ما يكشف عن خوارق لا يصنعها إلا الله. وعرفوا أيضاً عن النفس البشرية شيئاً..

وما يزال الإنسان فى طريق المعرفة. وستجد الأجيال فى كل عنصر نصيبها مدخراً من الآيات التى لم تكشف لنا بعد، وتبقى معارض الكون ومشاهده المنظورة معارض هائلة، حافلة بكل عجيب وجديد، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، ولو مضت الأجيال تتأمل آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس، وتشير مجرد إشارة إلى ما فيها من عجائب، وإلى ما تشير إليه هذه العجائب، ما انتهى لها قول ولا إشارة.

ويقول الرازى فى تفسيره: دلائل التوحيد محصورة فى قسمين: دلائل الآفاق ودلائل الأنفس، ولا شك أن دلائل الآفاق أعظم كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

ولقد زود الله الإنسان بالعديد من الوسائل والمدركات، وأحاطه بمناخ هائل مفعم بمختلف الصور فى الأنفس وفى الآفاق، مما يستطيع بها جميعاً لو استغلها وتفاعل معها أن يصل إلى أقصى ما يدعم كيانه من الإنطلاق.

ولقد بلغ من حفاوة الإسلام بالعقل وحرصه على أن يزاول فى حيوية تفكيره، وتأمله، ونظره: أن قامت الدعوة الإسلامية نفسها وهى تستنهض العقل كما اعتمدت عليه فى إثبات وجود الله، وفى إقناع الناس بالإسلام، وحملهم على الإيمان بالله، ورسوله، وكتابه.

ومن أجل ذلك نراه يستثير تفكير الناس، ويرمى إلى إيقاظ عقولهم، ويدعوهم بشتى الوسائل إلى ضرورة التفكير فى الأنفس والآفاق، وجميع ما تلمسه حواسهم، ويقع تحت مدركاتهم.

والحق أن دعوة الإسلام إلى إطلاق الفكر، وإيقاظ البصيرة، للنظر والتأمل لا ولن تعدلها دعوة فى القديم أو الحديث إلى أن تقوم الساعة، وحسبه من ذلك إن كان النظر فى الكون والتأمل فيه، قرين الإيمان الحق، وقائداً ومرشداً وداعياً

إليه. قال تعالى فى سورة يونس: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

ولا شك أن النظر فى الآفاق، وفى الأنفس، يمُدّ عقلَ المؤمن وقلبه بزادٍ من المشاعر، والتأملات، وزادٍ من الاستجابات والتأثرات، وقدرٍ من سعة الشعور بالوجود، ومن التعاطف مع هذا الوجود، فيزداد إيمانه بوجود الله، وجلاله، وتدبيره، وسلطانه، وحكمته، وعلمه.

والمؤمنون هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله الكونية المبثوثة فى تضاعيف هذا الكون وثناياه المشهودة فى تنسيقه وتنظيمه، المنثورة فى جوانبه حيثما امتدت الأبصار، والمؤمنون هم الذين يدركونها لأنهم مفتوحو البصائر، والمشاعر لتلقى الإدراك. ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣].

* * *